أبو نعيم الأصبهاني

وكتاب « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء »

عبد الكريم زهور عدي

القسم الثالث

التراجم في الحلية

سبق القول إن عدد التراجم في الحلية أربعة وثمانون وستمائة . وباستعراضها يتبين أن خمساً وعشرين وثلثمائة منها ، أي نحو نصف عددها ، تقع كل ترجمة منها في أقل من ثلاث صفحات ومعظمها لايبلغ الصفحة الواحدة بل قد لا يتجاوز الأسطر القليلة أو مجرد ذكر الاسم وحده أو اللقب أو الكنية . وقد ذكرت من قبل مثلاً على هذه التراجم ، وهذا مثل آخر(٦٦) :

« وذكر (أبو عبد الرحمن السلمي) جرهد بن خويلد وقيل ابن رزاح السلمي ، سكن الصفة متطرقاً ، شهد الحديبية . حدثنا أبو بكر بن خلاد ثنا محمد بن غالب ثنا القعنبي عن مالك بن أنس عن أبي النضر عن زرعة بن عبد الرحمن بن جرهد عن أبيه قال : كان جرهد من أصحاب الصفة وأنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا وفخذي منكشفة ، فقال : أما علمت أن الفخذ عورة ؟ » .

فهذه ، كما هو واضح ، ليست ترجمة ، إذ لاتقدم لنا من المعلومات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أكثر مما يقدمه سند الحديث . والحديث ، بالمناسبة ، لايدخل في باب الرقاق بل في باب الأحكام .

وما يقال في هذه الترجمة يقال مثله في أمثالها مما تحتوي أكثر من حديث أو قول مثل : ترجمة الأغر المزني[٦٧] وترجمة عبد الله ذي البجادين[٦٨] وأمثالها كثير .

فإذا تجاوزنا أمثال هذه التراجم إلى تراجم أطول وأكثر تفصيلاً تبلغ الصفحتين وقد تزيد فماذا نجد ؟ لنأخذ ترجمة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مثلاً :

ترجم له أبو نعيم[٦٩] في صفحتين وقف فيهما على صفتين من صفاته : شجاعته التي برزت في بلائه يوم أُحُد ومجالدته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استحق أن يقول فيه الرسول : « من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة » ، وكرمه حتى استحق لقب « طلحة الخير » و « طلحة الفياض » .

ولكن طلحة ليس نموذجاً أسطورياً للشجاعة والكرم ، بل هو شخصية تاريخية له اسمه وكنيته ولقبه ونسبه وبلده وتاريخ مولده ووفاته وله صفاته الجسدية والخلقية والعقلية وأعماله وحسناته وأخطاؤه . فلننظر كيف ترجم لطلحة الخير آخرون وليكن مثلاً ابن سعد (١٦٨ ـ ٢٣٠) في طبقاته[٧٠] :

ترجم ابن سعد لطلحة في اثنتي عشرة صفحة ألم فيها باسمه ونسبه وكنيته وأولاده وبإسلامه وهجرته ومن آخى بينه وبينه رسول الله وبغيابه عن بدرٍ بسبب مهمة بعثه فيها الرسول وبلائه في أحد وبصفاته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجسدية ولباسه وبموقفه من عثمان وندمه بعد مقتله الذي ورطه في وقعة الجمل ، وبمقتله وتاريخه وقاتله وموقف علي بعد مقتله منه ومن أولاده وبغناه وسخائه وعمره .

وماقيل في ترجمة طلحة يقال مثله في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح[٧١] رضي الله عنه إلا أن هذه أكثر غنى بالتفصيلات ، فأبو عبيدة كان فقيراً زاهداً وهذا الصنف من الرجال هو الذي كان يجتذب أبا نعيم إليه .

ولننتقل إلى رجال من نوع آخر صوفية ، وليكن مثلنا أبا عبد الله أحمد بن يحيي الجلاء :

ترجم له أبو نعيم[٧٢] في أكثر من صفحة ، ذكر فيها اسمه وكنيته وقال : إن أصله من بغداد وسكن الرملة ، وذكر عدداً من شيوخه ثم سرد كلمات له مع أسانيدها .

فإذا رجعنا إلى طبقات الصوفية[٧٣] لأبي عبد الرحمن السلمي لانجد فيه أكثر مما في الحلية إلا أنه قال : أقام بالرملة ودمشق ، وأنه كان أستاذ الدقي ، وأن إسماعيل بن نجيد قال : « كان يقال : إن في الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لارابع لهم : الجنيد ببغداد وأبو عثمان بنيسابور وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام » .

وزاد عليها الذهبي في السير[٧٤] فذكر عدداً من الشيوخ الذين صحبوه وقولاً لتلميذه الدقي فيه وتفسيره (أي تفسير ابن الجلاء) للقب أبيه الجلاء وتاريخ وفاته .

والشيء نفسه نجده في ترجمة أبي نعيم لأبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري[٧٥] إلا أنه يضيف إليه تاريخ وفاته ، وهذا أمر قلما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فعله أبو نعيم في الحلية ، وحديثين مسندين ، وهذا أمر يكاد يكون مطرداً فيها .

فأظن أنه أصبح ممكناً ، بعد هذه الأمثلة ، القول : إن غالب التراجم القصيرة لاتكاد تعد تراجم ، إنها أحاديث أو أقوال أو أخبار ترتبط ارتباطاً تتفاوت قوته بالمترجم . والتراجم الأكثر تفصيلاً ينقصها عدد من الصفات التي قد يكتفي بها علماء الحديث وهي قليلة : ذكر اسم المترجم ولقبه وكنيته حين توجد ، ونسبه إلى قبيلته أو بلده في أحيان غير قليلة . وعدد من شيوخه وتلاميذه . وإيراد شهادات فيه : في صلاحه وصدقه وعلمه وغيرها ، أي تقويمه من حيث الثقة به وبروايته لتقدير درجة صحة مايروى من حديث . ورواية عدد من الأحاديث أسندها . وتحديد تاريخ وفاته أو تقديرها للتأكد من صحة تسلسل الأسانيد .

فإذا جاوزناها إلى التراجم المتوسطة الطول أو المطوّلة فهل نجدها أو نجد فيها تراجم استكملت عناصر الترجمة ؟ ولتكن ترجمة محمد بن واسع مثالاً للدراسة :

ترجم أبو نعيم لمحمد بن واسع[٧٦] في اثنتي عشرة صفحة انطوت على مجموعة من أقواله والأقوال فيه وأحاديث أسندها واسم أنس بن مالك وبعض التابعين وقد أسند عنهم . ولكنها في مجموعها تقدم صورة لاينقصها الوضوح عن الصفات العقلية والخلقية والروحية لمحمد بن واسع الخاشع المتواضع المُخفي صلاته وصومه وبكاءه ، الذي يخشى ربه بالغيب لما أوتي من بصيرة ثاقبة تساور سرائر النفوس وترقب تحركاتها وجماحها وشرادها ، القليل الكلام الطويل الصمت اللطيف في عبادته القائل :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« رأيت يكفي من الدعاء مع الورع اليسير » لأنه يعلم أن العبادة مناجاة وسر بين العبد وربه . ومن أعظم ماقيل فيه قولة قتيبة بن مسلم المقاتل في الله ولله حين خرجت إليه الترك فبعث إلى المسجد من ينظر فيه فلم يكن فيه إلا محمد بن واسع رافعاً إصبعه فقال : « إصبعه تلك أحب إلي من ثلاثين ألف عنان » ، كلمة هينة ولكنها عظيمة الدلالة على القائل القول والمقول فيه . ومن أعمق ماقال وقيل فيه قوله لمالك بن دينار ، حين قسم أمير للبصرة على قرائها فبعث إلى مالك فقبل ، فقال ابن واسع : « يامالك قبلت جوائز السلطان ؟ فقال : ياأبا بكر سل جلسائي ، فقالوا : ياأبا بكر اشترى بها رقاباً فأعتقهم ، فقال له محمد : أنشدك الله أقلبك الساعة له على ماكان عليه قبل أن يجيزك ؟ قال : اللهم لا ، قال : ترى أي شئ دخل عليك ، فقال مالك : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع » .

فإذا رجعنا إلى ترجمته في « سير أعلام النبلاء »[٣٧] نجد الذهبي قد اختار من الأقوال والأخبار ، ورتبها بعض الترتيب ، مايكاد يفي بما وفت به الأقوال والأخبار الواردة في الحلية . ذلك إلى ذكر كنيته ونسبه إلى الأزد وبلده وعدد من الرجال الذين روى عنهم ورووا عنه وعدد الأحاديث التي أسندها وتوثيقه من قبل علماء الحديث ولباسه وماقيل في تاريخ وفاته . كل ذلك في ترجمة لاتبلغ ثلاث صفحات أو ربع الترجمة الواردة في الحلية .

ومن الواضح أن ترجمة أبي بكر بن واسع في السير ، على خلاف ترجمته في الحلية ، تكاد تكون قد جمعت عناصر الترجمة كما هي الترجمة في التراث الإسلامي . ولو تفحصنا معظم التراجم في الحلية ما كان منها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أوسع قليلاً أو كثيراً من هذه الترجمة أو أقصر لحصلنا على النتائج نفسها . ومع ذلك لنفحص ترجمة رجل نسيج وحده : الجنيد بن محمد شيخ مشايخ الصوفية في بغداد بل شيخهم في العالم الإسلامي في زمانه وربما بعد زمانه ، ولنقارن بين ترجمته في الحلية وترجمته مثلاً في تاريخ بغداد . وقد تكون خير طريقة للمقارنة فهرسة العناصر والمواد في الترجمتين فهرسة مفصلة ومقابلة ماورد منها وما لم يرد فيهما :

جاءت ترجمة الجنيد عند أبي نعيم[٧٨] في ثلاث وثلاثين صفحة واحتوت على العناصر والمواد التالية :

اسمه واسم أبيه واسم جده وكنيته : أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد .

رأيه في أن التصوف مضبوط بالكتاب والسنة .

تفقهه على مذهب أصحاب الحديث : أبي عبيد وأبي ثور .

صحبته للسري السقطي والحارث المحاسبي ، وخبر ذو دلالة هامة على طريقة المحاسبي في تأليف كتبه .

كلمة مطوّلة في التوحيد .

حلم ذو قيمة رمزية كبيرة في حق التصوف ، لا أرى بأساً في إيراده : « أخبرنا جعفر بن محمد بن نصير فيما كتب إلي وحدثني عنه محمد بن إبراهيم قال : رأيت الجنيد في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار » .

كلمة مطوّلة في المعرفة .

وكلمة ثانية مطوّلة في الوصول ومفاوز الطريق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتاب إلى بعض إخوانه في أن ما يجعل الموعظة ذات تأثير أن تصدق أفعال الواعظ أقواله .

كلمة مطوّلة فيما تنهى عنه الحكمة .

كلمة تصف عباد الله الذين أشرف بهم علم اليقين على ماهم إليه صائرون .

أقوال له قصيرة من مثل : « إن بدت عين الكرم ألحقت المسيئ بالمحسن ، قال أبو العباس بن عطاء : متى تبدو ؟ فقال له الجنيد : هي بادية ، قال الله : سبقت رحمتي غضبي » .

تعبده وهو في عتبات الموت .

قول له في الذكر الخفي .

وقول له فيما يورثه الله لأوليائه .

كلمة مطوّلة في الإيمان .

أقوال قصيرة وشعر أنشده ، منه هذان البيتان

أناس أمنّاهم فنمّوا حديثنا فلما كتمنا السرّ عنهم تقولوا
ولم يحفظوا الود الذي كان بيننا ولاحين همّوا بالقطيعة أجملوا

كلمة مطوّلة في أن العاقل من لايفقد أياً من مواطن ثلاثة : موطن يعرف فيه حاله أمزاد أم منتقص ، وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه ، وموطن يستحضر فيه عقله برؤيته مجاري التدبير عليه .

حوار مع السري في المحبة وآخر في التوبة وثالث في علم العبد قبول الله له .

حوار مع أشخاص من الجن أو من الأولياء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقوال قصيرة من نوع جوامع الكلم ، مثل : « لاتكون عبداً لله بالكلية حتى لاتبقى عليك من غير الله بقية » .

كتاب إلى أبي إسحاق المارستاني في موقف المخصوصين من المذنبين تجاه أنفسهم وتجاه المذنبين .

كلمة في : متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل ؟

قوله في أهل المعرفة والطاعات

أقوال له .

كتاب إلى بعض إخوانه فيه توصيات من نوع : ترك الالتفات إلى كل حال ماضية ، وترك الملاحظة للحال الكائنة بجولان الهمة لملتقى المستقبل من الوقت الوارد ...

كتاب إلى بعض إخوانه حول عدم إخلاء الله الأرض من أوليائه .

كلمة في المحبة هل هي من صفات الذات أم من صفات الأفعال .

قول في آثار المعرفة على العارف .

عمله وهو في النزع .

حديث أسنده .

دعاءان طويلان .

قول في المناصحة للنفس وللخلق .

أبيات من الشعر أنشدها ، منها :

تريد مني اختبار سري ... وقد علمت المراد مني

فليس لي من سواك حظ ... فكيفما شئت فامتحني

كل بلاء عليّ مني ... ياليتني قد أخذت عني

دعاء طويل استغرق نحو ثلاث صفحات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعند الخطيب كانت ترجمة الجنيد في ثماني صفحات فقط ألم فيها بالموضوعات التالية :

اسمه واسم أبيه واسم جده وكنيته : أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد .

مهنة أبيه وكان قواريرياً ومهنته هو وكان خزازاً ومن هنا لقبه : الخزاز والقواريري .

أصله من نهاوند ومولده ونشأته في بغداد .

سمع الحديث ولقي العلماء ودرس الفقه على أبي ثور .

صحب جماعة من الصالحين منهم الحارث المحاسبي وسري السقطي .

أسند الحديث عن الحسن بن عرفة ـ حديث مسند (ورواه الخطيب بطريق آخر ليس فيه الجنيد) .

شهادات معاصريه فيه وفي تبحره في كثير من العلوم حتى كان « يفتي في حلقة أبي ثور وبحضرته » وحتى قال هو : « ماأخرج الله إلى الأرض علماً وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وقد جعل لي فيه حظاً ونصيباً » . ولكن علم التصوف عنده هو أشرف العلوم ، قال : « لو علمت أن لله علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم ... لسعيت إليه وقصدته » .

شهادة تصف مجلسه ، قال أبو القاسم الكعبي : « رأيت لكم شيخاً ببغداد يقال له الجنيد بن محمد مارأت عيناي مثله . كان الكتبة يحضرونه لألفاظه ، والفلاسفة يحضرونه لدقة معانيه ، والمتكلمون يحضرونه لزمام علمه ، وكلامه بائن عن فهمهم وكلامهم وعلمهم » .

أقوال له في تبعية التصوف للشريعة : الكتاب والسنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقوال في تعبده .

حادثة تدل على ذوقه ولطفه في معاملته لإخوانه .

قول في اجتماع العلم والحال له .

رجوعه إلى الله وخلوته في المسائل التي ليس له بها منازلة .

أقوال له .

حادثتان تدلان على ولايته .

أقوال تصفه وتصف تعبده وهو في النزع .

تحديد يوم وفاته وتاريخها ووصف جنازته ومكان قبره وزيارة الناس له كل يوم نحو الشهر .

وختم الخطيب الترجمة بحادثة طريفة عن رجل مصاب كان يسكن خربة بجوار الجنيد ، فلما مات فارقها وقال :

وا أسفي من فراق قـــــوم هم المصـــابيـــح والحصـــون

والمـــــدن والمـــزن والرواسي والخير والأمن والسكـــــون

لم تتغير لنـــــا الليـــــالي حتى تـــــوفتهم المنـــــون

فكل جمر لنـــــا قلـــــوب وكل مـــــاء لنـــــا عيـــون

فترجمة أبي نعيم للجنيد ، إذا أردت أن أصفها بقليل كلام ، هي في معظمها مجموعة أقوال للجنيد وإجابات على سؤالات وكتب كتبها إلى إخوانه وأدعية (والجنيد على ماأعلم لم يخلف كتباً مؤلفة بل كان أهم مافي تراثه رسالاته إلى إخوانه) ، وهي في قليل منها أقوال فيه وأخبار ، أي بتعبير أدق تقف عند الجنيد المفكر الروحاني أكثر مما تقف عند الجنيد الإنسان . وهي ، من هذه الناحية ، ذات قيمة كبيرة إذ تسمح باستخراج مخطط هيكلي على الأقل لنظرية الجنيد الصوفية . ولكنها من حيث هي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ترجمة تفتقد عناصر أساسية وضرورية .

وبالمقابل فإن ترجمة الخطيب تحمل أخباراً عن علاقاته الإنسانية بإخوانه وبالناس وموقفه منهم وموقفهم منه وتبحره في العلوم المختلفة وحاله ، وتصف مجالسه وأنماط الناس الذين يحضرونها وطريقته في تحضير الأجوبة على مايلقى عليه من أسئلة وتعبده وكراماته الخ .. ذلك إلى كثير من التفصيلات المتصلة بشخصه والضرورية لكل ترجمة .

والنتيجة من كل ماتقدم أنه إذا قيل إن الحلية تحتوي على تراجم ففي هذا القول كثير من التجوز والتوسع في مدلول كلمة ترجمة . والواقع أنها أقوال وأخبار في الزهد و .. التصوف حشدت حول أسماء . وليس معنى هذا القول أن أبا نعيم لايتقن « فن التراجم » أو « علم الرجال » ، ففي « تاريخ أصبهان » تراجم حوت ، وهي لاتتجاوز الأسطر القليلة ، من عناصر الترجمة أكثر مما تحوي منها تراجم في « الحلية » تتجاوز عشرات الصفحات . ولكن مقصد أبي نعيم في الحلية كان غير ترجمة الرجال ، كان كما قال في المقدمة تصنيف « كتاب يتضمن أسامي جماعة وبعض أحاديثهم وكلامهم من أعلام المتحققين من المتصوفة وأئمتهم .. » ولكن هذا التحديد نفسه لموضوع الحلية يثير كثيراً من التحفظات ، أكتفي منها باثنين :

الأول أرجع فيه إلى ملاحظة كنت أثبتها من قبل حين وجدت أن الأسماء المشتركة بين « طبقات الصوفية » و « الحلية » خمسة وستون من مائتين وخمسة ترجم لهم أبو عبد الرحمن . والطبقات أقدم من الحلية ولم يشمل إلا كبار مشايخ الصوفية ، والحلية يشمل صغاراً وكباراً والصغار أكثر عدداً ، فكان المتوقع أن يحيط الحلية بكل ما أحاط به الطبقات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويزيد عليه . والواقع أن نصيب المتصوفة ، حتى إذا أضفنا إليهم من لايعدون من صلب الصوفية أمثال إبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وإنما هم تباشير للتصوف ، لايبلغ عشر الحلية ، هذا إذا اتبعنا رأي السلمي والقشيري وجمهور علماء التصوف . ولكن أبا نعيم ، على مايظهر من ربطه بين صفات معظم الرجال الذين ترجم لهم وبين التصوف ربطاً يتفاوت فيما فيه من اصطناع وتكلف ، يعد كل من ترجم لهم من المتصوفة ، معتمداً على تمييزه بين الأئمة الذين نصبهم الله هداة وقدوة للناس أجمعين وولايتهم خفية والأولياء الذين أظهر عليهم نعمته بالولاية . ويبقى لنا أن نعجب من إدخال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مثلاً من الصحابة والشافعي مثلاً من أئمة الفقه في عداد المتصوفة (وأمثالهم في الحلية كثير) ، وأبو نعيم نفسه يذكر بحق الأول الحديث التالي[٨٠] : « حدثنا سليمان بن أحمد ثنا أبو يزيد القراطيسي ثنا أسد بن موسى ثنا عمارة بن زاذان عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال : بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتاً رجت منه المدينة ، فقالت : ماهذا ؟ قالوا : عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف من الشام ، وكانت سبعمائة راحلة ، فقالت عائشة : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً .. » ، ونقل عن الثاني قوله[٨١] : « حدثنا محمد بن عبد الرحمن حدثني أبو الحسن بن القتات ثنا محمد بن أبي يحيى ثنا يونس بن عبد الأعلى قال سمعت الشافعي يقول : لو أن رجلاً عاقلاً تصوف (في الصباح) لم يأت الظهر حتى يصير أحمق » .

والذي بدا لي من قراءة الحلية (وغيرها) أن أبا نعيم لم يتجاوز في التصوف عتباته ، وأنه إذا كان خطا في العتبات فتحت تأثير الجو الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلفه جده محمد بن يوسف البناء لابدافع من طبعه ، وأنه لم يكن إلا عالماً من علماء الحديث وأخبارياً على طريقة أهل الحديث من النوع الذي صرف جانباً من اهتمامه إلى الرقائق ، وأن الحلية كتاب في الزهد جمع كثيراً من أخبار الزهد والزهاد وقليلاً من أخبار التصوف والصوفية .

والتحفظ الثاني هو على هذا التحديد الجديد لموضوع « الحلية » . فأبو نعيم يخصص من كل ترجمة جزءاً لأحاديث أسندها المترجم ، إذا كان ممن روى الحديث وأكثرهم رواه . وهذه الأحاديث قد يكون منها مايدخل في باب الرقاق والزهد وقد لايكون ، والأغلب إن كان أن يكون جزءاً يسيراً من مجموع الأحاديث المسندة . فإذا كان المترجم عالماً من علماء الحديث فقد يطغى الجزء المخصص للحديث طغياناً كبيراً وأحياناً كاملاً على الترجمة :

فحماد بن سلمة مثلاً جاءت ترجمته[٨٢] في ثماني صفحات منها نحو ستٍ أحاديثُ أسندها .

وحماد بن زيد : ترجمته[٨٣] في عشر صفحات منها سبعٌ أحاديثُ .

وشعبة بن الحجاج[٨٤] : ترجمته في خمس وستين منها ثنتان وخمسون أحاديثُ .

ومسعر بن كدام : ترجمته[٨٥] في ثنتين وستين منها سبع وخمسون أحاديثُ .

وعبد الرحمن بن مهدي : ترجمته[٨٦] في أربع وستين منها خمسون تكاد تكون كلها أحاديث الخ ...

أما ابن راهويه إسحاق بن إبراهيم فكانت ترجمته[٨٧] في نحو خمس صفحات منها نحو أربع روى فيها أبو نعيم ستة عشر حديثاً كلها من أفراد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إسحاق وغرائبه ، وكأنه لم يعثر على أي خبر عنه أو أي قول له أو فيه إلا أبياتاً قليلة من الشعر قيلت فيه ، مع أن ابن راهويه كان من الأئمة في خراسان ، وقد ترجم له الخطيب في تاريخه[٨٨] في عشر صفحات روى فيها عنه حديثين اثنين في نحو نصف صفحة فقط ، وترجم له الذهبي في السير[٨٩] في خمس وعشرين صفحة روى فيها عنه عالياً خمسة أحاديث في نحو صفحتين ونصف الصفحة .

فإذا كان المترجم مشتهراً بعلم من العلوم كالتفسير أو الفقه أو تعبير الرؤيا .. أو خصيصة من الخصائص كقوة العارضة في المناظرة أو نفاذ البصيرة في الفراسة أو شدة التأثير في الوعظ .. خالط أخبار الزهد والنسك والتعبد في ترجمته أخبار تتصل بما اشتهر به ، ويتفاوت الحيز الذي تشغله من الترجمة ولكنه في الغالب لايكون كبيراً ، إلا في حالات قليلة كما هي الحال في ترجمة أبي الحجاج مجاهد بن جبر[٩٠] : فقد أخذت ترجمته من الحلية ثنتين وثلاثين صفحة كان منها عشرون تفسيراً وتسعٌ أحاديثَ مسندة .

فعالم الحديث والأخباري الذي وجه اهتمامه إلى أخبار الزهد والزهاد كانا يعملان معاً في تصنيف الحلية من دون رقابة تمسك عالم الحديث في الحدود التي ينبغي أن لايتجاوزها في كتاب مخصص لأقوال الزهاد وأخبارهم . وإني لأتخيل أبا نعيم الشيخ الذي تقدم في العمر ، وقد عزم على تصنيف الحلية ، قد نشر بين يديه ماكتبه في عمره المديد في الحديث والأخبار وكتباً لسواه ، وأخذ يقرأ ، والأغلب يقرأ عليه ، فيلحق أو يقول ألحقوا هذا الحديث بفلان وذاك الخبر بفلان الآخر دون كبير عناية بالترتيب . ولما كانت الأحاديث والأخبار جميعاً مسندة وتتكرر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن في كتاباته أو كتب سواه بالسند الواحد أو بأسانيد متعددة ، فقد كان يمكن أن يُلحق الحديث أو الخبر بأي رجل من رجال السند أو الأسانيد . وهذا سبب مانقع عليه من أحاديث وأخبار مكررة في تراجم متعددة . ذلك إلى سبب آخر هو ضخامة كتاب الحلية وماينبغي أن يكون قد استغرقه تصنيفه من وقت طويل . ولذلك قد تتكرر حتى ترجمة الرجل الواحد لسبب يبينه أبو نعيم أو دون سبب ظاهر ودون إشارة منه ، كما هو الأمر في تراجم الرجال الآتية أسماؤهم ، ويلاحظ أنهم جميعاً من المغمورين الذين لاتثبت أسماؤهم في الذاكرة :

أبو الأبيض له ترجمة في ٣ / ١١١ وفي ١٠ / ١٣٣ ـ أحمد الموصلي في ٨ / ٢٨٨ و ١٠ / ١٣٤ ـ أبو محمد خزيمة العابد في ٦ / ٣٠٢ و ١٠ / ١٣٠ ـ أبو محمد سباع الموصلي في ٨ / ٢٩٢ و ١٠ / ١٣٦ ـ أبو عبد الله بن أبي جعفر البراثي ١٠ / ١٣٧ و ١٠ / ٣٢٣ ـ أبو محمد عبد الله بن دينار الجعفي ١٠ / ١٦٢ و ١٠ / ٣٥٩ ـ أبو محرز الطفاوي في ١٠ / ١٣٨ و ١٠ / ١٥٨ ـ مسكين بن عبيد الصوفي ١٠ / ١٣٦ و ١٠ / ١٥٩ ـ مغيث الأسود في ١٠ / ١٤٣ و / ١٠ / ١٦٠ ـ أبو أحمد يحي بن الحسن القلانسي في ١٠ / ٣٠٦ و ١٠ / ٣٤١ ـ أبو يعقوب الزيات في ١٠ / ٢٢٣ و ١٠ / ٣٤٢

وليس معنى هذا القول أن كتاب الحلية كان يفتقد نوعاً ما من الترتيب إن في مجموعه أو في كل ترجمة ترجمة . أما ترتيبه في مجموعه فقد عرضت له من قبل . وأما في التراجم فكان أبو نعيم يتبع الترتيب التالي أو ترتيبات مشابهة له أو قريبة :

يفتتح كل ترجمة « بديباجة » مؤلفة من جمل مسجوعة يسعى فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلى تلخيص صفات المترجَم وخصائصه ، ويتفاوت توفيقه فيها بمقدار ماتواتيه السجعات أو تشمس عليه ، وأكثرها متكلفة تبقى الأوصاف فيها إما عامة جداً أو مهتزة الحدود غائمة المضمون . وأكتفي بذكر ديباجة في وصف رأس مرحلة هامة في تطور الحياة الروحية في الإسلام :

قال أبو نعيم في ديباجته يصف الحسن البصري[٩١] : إنه « حليف الخوف والحزن أليف الهم والشجن عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن ، الفقيه الزاهد المتشمر العابد ، كان لفضول الدنيا وزينتها نابذا ، ولشهوة النفس ونخوتها واقذا » . ولكن منذا الذي من زهاد ذلك العهد لم يكن خائفاً من أهوال يوم القيامة ومحزوناً مما ابتلي به من النفس الأمارة والدنيا الغرارة ؟ وكم هم المتفقهون في دينهم في تلك الأيام ؟ وربما كانت كلمة صغيرة وردت في « سير أعلام النبلاء » وهي وصفه بأنه « شيخ أهل البصرة »[٩٢] أكثر دقة في الوصف من كل هذه الأوصاف . فالبصرة كانت أكبر مركز للحضارة الناشئة في ظل الإسلام ، والحسن كان فعلاً شيخها في الفقه والعبادة والنسك والموعظة والبيان و .. ولاسيما في اعتزال الفتنة اعتزالاً قائماً على العقيدة والإيمان ، مما يصح معه ماورد في السير أيضاً أنه « سيد أهل زمانه علماً وعملاً » .

ثم يُتبع الديباجة غالباً عباراتٍ مسجوعة أيضاً يحاول فيها ربط الصفات التي ذكرها فيها بالتصوف ، وتكون هذه العبارات إلا قليلاً منها متكلفة ولا يكاد الإنسان أحياناً يتبين لها معنى فيما هي في صدده :

وهذه هي العبارات التي ألحقها أبو نعيم بديباجة ترجمة الحسن ، عسى أن يجد غيري فيها أية دلالة خاصة تتصل بالحالة الخاصة للحسن :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وقد قيل : إن التصوف التنقية من الدرن ، والتوقية من البدن ، للتبقية في العدن » .

ثم يأتي أبو نعيم بحشد يختلف في كثرته حسب الرجل المترجَم أو المواد المتوفرة لديه من الأقوال للمترجم وفيه والأخبار عنه ، وإذا كان مشهوراً مثلاً بالوعظ فقد يأتي له بموعظة أو أكثر وقد تكون الموعظة طويلة ، أو كان مشهوراً بالفراسة فقد يورد له غرائب من فراسته الخ .. كل ذلك يأتي به في الغالب مختلطاً بعضه ببعض دون تصنيف مايأتلف منه مع بعضه وفرزه عما عنه يختلف . وقد سردت من قبل المواد التي تضمنتها ترجمة الجنيد وإنها لتصلح مثالاً على ماذكرت .

ثم يختم الترجمة عادة بذكر عدد من الشيوخ أسند عنهم المترجَم وأحاديث أسندها ، إن وجدت ، ويتفاوت عددها ونوعها ، تبعاً لصفته وما حصّل أبو نعيم منها وما اختار مما حصل : فقد يكتفي بما رواه عالياً ، أو يقف عند غرائبها وأفرادها ، أو ما كان مشهوراً منها أو كثرت رواياته الخ .. وقد سبقت أمثلة يمكن الرجوع إليها ، وهذه أمثلة أخرى :

ختم ترجمة الحسن بثمانية من غرائب حديثه ، وترجمة سفيان الثوري بأحاديث ملأت زهاء ستين صفحة قدم لها بهذه الكلمة « فمن مسانيد بعض حديثه ومشاهيره وغرائبه » ، وترجمة الفضيل بن عياض بأكثر من تسعين حديثاً ، وخالف في ترجمة الجنيد فذكر له حديثاً واحداً لافي نهاية الترجمة بل خلالها وأقرب إلى نهايتها الخ ..

ويمكننا في نهاية هذا العرض تلخيصه في النقاط التالية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

١ ـ إن زهاء نصف التراجم في الحلية كانت قصيرة فافتقدت كل العناصر الضرورية للترجمة أو أكثرها .

٢ ـ والنصف الآخر من التراجم المتوسطة والطويلة افتقدت أيضاً عناصر أساسية كثيرة .

وما ذلك إلا لأن مقصد أبي نعيم في الحلية لم يكن ترجمة الرجال بل جمع أقوال وأخبار في الزهد والزهاد و .. التصوف والصوفية .

٣ ـ حتى هذا المقصد لم يحققه أبو نعيم خالصاً فقد اقتطعت الأحاديث نصيباً وافراً من الحلية وآخر قليلاً معلوماتٌ وأخبارٌ ترجع إلى علوم واتجاهات أخرى .

٤ ـ اتبع أبو نعيم عموماً في التراجم المتوسطة والطويلة التخطيط التالي :

أولاً ـ ديباجة مسجوعة تلخص الصفات والخصائص الأساسية للمترجم متبوعة بعبارات تربط بين هذه الصفات والخصائص وبين التصوف .

ثانياً ـ أقوال في المترجم وأخبار عنه .

ثالثاً ـ أقوال له .

وهذه الأقوال والأخبار جميعاً تأتي مختلطة ينقصها الحد الأدنى من التبويب .

رابعاً ـ ذكر بعض الشيوخ الذين أسند عنهم المترجَم وعدد من الأحاديث المسندة .

للبحث صلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المراجع والتعليقات

(٦٦) الحلية ١ / ٣٥٣

(٦٧) الحلية ١ / ٣٤٩

(٦٨) الحلية ١ / ١٢٢ و ١ / ٣٦٥

(٦٩) الحلية ١ / ٨٧

(٧٠) طبقات ابن سعد ٣ / ٢١٤ ـ ٢٢٦

(٧١) الحلية ١ / ١٠٠

(٧٢) الحلية ١٠ / ٣١٤

(٧٣) طبقات الصوفية ١٧٦

(٧٤) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٥١ ـ وجاء فيها : « قال الدقي : ... فسمعته يقول : ماجلا أبي شيئاً قط ، ولكنه كان يعظ فيقع كلامه في القلوب ، فسّمي جلاء القلوب » .

(٧٥) الحلية ١٠ / ٢٤٤

(٧٦) الحلية ٢ / ٣٤٥

(٧٧) سير أعلام النبلاء ٦ / ١١٩

(٧٨) الحلية ١٠ / ٢٥٥

(٧٩) تاريخ بغداد ٧ / ٢٤١

(٨٠) الحلية ١ / ٩٨

(٨١) الحلية ٩ / ١٤٢

(٨٢) الحلية ٦ / ٢٤٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٨٣) الحلية ٦ / ٢٥٧

(٨٤) الحلية ٧ / ١٤٤

(٨٥) الحلية ٧ / ٢٠٩

(٨٦) الحلية ٩ / ٣

(٨٧) الحلية ٩ / ٢٣٤

(٨٨) تاريخ بغداد ٦ / ٣٤٥

(٨٩) سير أعلام النبلاء ١١ / ٣٥٨

(٩٠) الحلية ٣ / ٢٧٩

(٩١) الحلية ٢ / ١٣١

(٩٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٦٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net